الأَمِيرُ المُتَخَفِّي



حديقة الطفل

الأمير المنخفي

بقلم

ابراهيم عزوز

ملتزمة الطبع والنشر

مكتبة مصر

٣ شارع كامل صدقى (الفجالة) بالقاهرة

- ١ -

كَانَ خُزَيْمَةُ بْنُ بِشْرٍ وَاحِداً مِنْ أَجْوَادِ الْعَرَبِ فِى زَمَنِ الْخَلِيفَةِ الْأُمَوِىِّ ، سُلَيْمَانَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ .

وَكَانَتِ الدَّوْلَةُ الْعَرَبِيَّةُ قَدِ امْتَدَّتْ وَاتَّسَعَتْ فِي عَصْرِ بَنِي أُمَيَّةَ حَتَّى وَصَلَتْ إِلَى حُدُودِ الصِّينِ فِى الشَّرْقِ ، وَإِلَى بِلَادِ الْأَنْدَلُسِ فِى الْغَرْبِ .

وَبِذَلِكَ أَصْبَحَتْ أَكْبَرَ دَوْلَةٍ عَرَفَهَا تَارِيخُ الْعَالَمِ

فِي الْقَدِيمِ وَالْحَدِيثِ .

وَكَانَتْ هَذِهِ الدَّوْلَةُ الْمُتَرَامِيَةُ الْأَطْرَافِ، مُقَسَّمَةً إِلَى وِلَايَاتٍ عِدَّةٍ ، يَحْكُمُ كُلَّ وِلَايَةٍ مِنْهَا أَمِيرٌ أَوْ وَالٍ ، يَتَّصِفُ بِالْعَدْلِ وَالْحَزْمِ وَالِاسْتِقَامَةِ، كَمَا يَأْمُرُ الْإِسْلَامُ بِذَلِكَ .

مِنْ هَذِهِ الْوِلَايَاتِ ، وِلَايَةُ الْجَزِيرَةِ ، الَّتِي تَقَعُ الْآنَ فِي الشَّمَالِ الْغَرْبِيِّ مِنْ جُمْهُورِيَّةِ الْعِرَاقِ الشَّقِيقَةِ .

فِي هَذِهِ الْوِلَايَةِ أَقَامَ خُزَيْمَةُ بْنُ بِشْرٍ ، وَرَاحَ يُنْفِقُ مِمَّا مَلَكَتْ يَدَاهُ عَلَى كُلِّ مَحْرُومٍ

وَمُحْتَاجٍ .. وَمَكَثَ عَلَى ذَلِكَ زَمَنًا لَيْسَ بِالْقَصِيرِ !!

فَلَمْ تَلْبَثْ ثَرْوَتُهُ الطَّائِلَةُ أَنِ انْتَقَلَتْ إِلَى أَيْدِي النَّاسِ، وَلَمْ يَبْقَ لَهُ شَيْءٌ مِنْهَا، وَلَكِنَّهُ ظَلَّ مَعَ ذَلِكَ لَا يَأْسَفُ عَلَى مَا فَعَلَ. وَرَاحَ يَنْتَظِرُ أَنْ يُفَرِّجَ اللهُ كُرْبَتَهُ، وَيُزِيلَ عُسْرَتَهُ. وَلَمَّا طَالَ انْتِظَارُهُ رَجَعَ ذَاتَ مَسَاءٍ إِلَى بَيْتِهِ وَهُوَ ظَاهِرُ الضِّيقِ وَالتَّعَبِ، فَاسْتَقْبَلَتْهُ زَوْجَتُهُ بِابْتِسَامَةٍ رَقِيقَةٍ حُلْوَةٍ، تُرِيدُ أَنْ تُخَفِّفَ عَنْهُ بِهَا بَعْضَ مَا كَانَ يَشْعُرُ بِهِ مِنْ ضِيقِ الصَّدْرِ، وَهَمِّ النَّفْسِ !!

لَقَدْ كَانَتْ زَوْجَتُهُ تَعْرِفُ سَبَبَ أَلَمِهِ وَضِيقِهِ ، وَكَانَتْ تَتَأَلَّمُ كَمَا يَتَأَلَّمُ ، وَتَحْزَنُ كَمَا يَحْزَنُ ، وَلَكِنَّهَا مَعَ ذَلِكَ تَظَاهَرَتْ فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ بِالصَّبْرِ وَالرِّضَا ، وَقَامَتْ تُعِدُّ طَعَامًا خَفِيفًا مِمَّا بَقِيَ عِنْدَهُمْ فِي الدَّارِ ، ثُمَّ قَدَّمَتْهُ إِلَيْهِ ، وَجَلَسَتْ تُؤَاكِلُهُ وَتُلَاطِفُهُ ، وَتَقُصُّ عَلَيْهِ قِصَصًا مُسَلِّيَةً ، وَحِكَايَاتٍ طَرِيفَةً ؛ لِتَشْغَلَهُ عَنْ هُمُومِهِ وَأَفْكَارِهِ . وَلَمَّا وَجَدَتْهُ لَا يَزَالُ ضَيِّقَ الصَّدْرِ قَالَتْ لَهُ :

ـ لِمَاذَا تَقْلَقُ وَتَجْزَعُ يَا بْنَ الْعَمِّ ؟! إِنَّكَ تُوشِكُ أَنْ تَقْضِيَ عَلَى نَفْسِكَ بِهَذَا الْأَسَى

وَالأَسَفِ ! !

إِنَّكَ ما أَنفَقْتَ مِنْ ثَرْوَتِكَ شَيْئاً في مُحَرَّمٍ .. وَسُكَّانُ الْجَزِيرَةِ كُلُّهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّكَ كُنْتَ تُقَدِّمُ أَمْوَالَكَ لِكُلِّ مُحْتَاجٍ ، فَمَا بَخِلْتَ بِهَا يَوْماً عَلَى جَائِعٍ وَلا عُرْيَانٍ ، وَمَا كَفَفْتَ يَدَكَ عَنْ مُسَاعَدَةِ قَرِيبٍ أَوْ بَعِيدٍ ، وَمَا أَقْفَلْتَ بَابَكَ في وَجْهِ طَارِقٍ في لَيْلٍ أَوْ نَهَارٍ ! !

وَابْتَسَمَتْ في وَجْهِهِ ابْتِسَامَةً مُطْمَئِنَّةً وَهِيَ تَقُولُ :

— إِنَّ الرَّجُلَ صَاحِبَ الْقَلْبِ الْكَبِيرِ ، لا يَطْلُبُ



وزاد به الألم . فأدار ظهره للطعام . . ص ١١

الْمَالَ ، وَلَا يَحْرِصُ عَلَى الْمَزِيدِ مِنْهُ ، إِلَّا لِيُنْفِقَهُ
فِي مِثْلِ هَذِهِ الْمَوَاطِنِ ، الَّتِي أَنْفَقْتَ ثَرْوَتَكَ فِيهَا !!

فَوَضَعَ اللُّقْمَةَ مِنْ يَدِهِ ، وَنَظَرَ إِلَيْهَا وَالدُّمُوعُ
فِي عَيْنَيْهِ ، ثُمَّ قَالَ :

— لَقَدْ عَلِمَ اللَّهُ يَا أَرْوَى ، أَنَّنِي لَا أَحْزَنُ عَلَى
شَيْءٍ صَنَعْتُهُ أَبَدًا .. وَإِنِّي لَأَعْلَمُ أَنَّ الْمَعْرُوفَ
لَنْ يَضِيعَ عِنْدَ اللَّهِ ، إِذَا ضَاعَ عِنْدَ النَّاسِ !! وَلَكِنِّي
أَحْزَنُ الْآنَ أَشَدَّ الْحُزْنِ ، لِأَنِّي أَرَاكِ تَعِيشِينَ هَذِهِ
الْعِيشَةَ الْخَشِنَةَ الْقَاسِيَةَ ، بَعْدَ حَيَاةِ الْعِزِّ
وَالنَّعِيمِ .. تَكْتَفِينَ بِالْأَكْلَةِ الْوَاحِدَةِ عَنِ الْأَكَلَاتِ ،

وَتَلْبَسِينَ فِي الشِّتَاءِ مَلَابِسَ الصَّيْفِ ، وَتَعْمَلِينَ بِيَدِكِ مَا كَانَ يَعْمَلُهُ الْجَوَارِي وَالْغِلْمَانُ مِنْ قَبْلُ !!

وَفَرَّتْ مِنْ عَيْنِهِ دَمْعَةٌ سَاخِنَةٌ ، لَمْ يَسْتَطِعْ مَنْعَهَا ، وَاسْتَمَرَّ يَقُولُ :

— هَذَا هُوَ سَبَبُ حُزْنِي وَشَقَائِي يَا أَرْوَى .. أَمَّا مَا لَقِيتُهُ مِنَ الْإِخْوَانِ وَالْأَصْحَابِ ، فَهُوَ شَيْءٌ كُنْتُ أَعْرِفُهُ قَبْلَ أَنْ يَقَعَ ؛ لِأَنَّهُ مِنْ طَبْعِ النَّاسِ فِي كُلِّ وَقْتٍ ، وَفِي كُلِّ بَلَدٍ ، وَفِي كُلِّ جِنْسٍ مِنْ أَجْنَاسِ الْبَشَرِ !!

نَعَمْ !! لَقَدْ سَاعَدُونِي فِي مِحْنَتِي ، وَمَدُّوا

إِلَىَ أَيْدِيهِمُ الْكَرِيمَةِ ، عِنْدَمَا كَانُوا يَرْجُونَ - كَمَا كُنْتُ أَرْجُو - أَنْ يُبَدِّلَ اللهُ حَالِي ، وَأَنْ يُعِيدَ إِلَىَّ أَيَّامَ الرَّخَاءِ وَالنَّعِيمِ .. وَلَكِنَّ الْحَاجَةَ اسْتَمَرَّتْ ، وَطَالَ زَمَنُ الْعُسْرَةِ ، فَتَغَيَّرَتْ نُفُوسُهُمْ ، وَانْقَبَضَتْ أَيْدِيهِمْ ، وَفَرُّوا مِنْ لِقَائِي ، خَشْيَةَ أَنْ أَطْلُبَ الْمَزِيدَ مِنَ الْقُرُوضِ وَالْمُسَاعَدَاتِ !!

وَنَظَرَ إِلَيْهَا نَظْرَةً أُخْرَى وَرَاحَ يَقُولُ :

— آهِ يَا أَرْوَى !! إِنَّ الْإِنْسَانَ يَعِيشُ مَحْبُوبًا مِنَ النَّاسِ ، مَادَامَ فِي غِنًى عَنْهُمْ ، فَإِذَا احْتَاجَ إِلَيْهِمْ كَرِهُوهُ وَنَفَرُوا مِنْهُ !!

وَزَادَ بِهِ الْأَلَمُ ، فَأَدَارَ ظَهْرَهُ إِلَى الطَّعَامِ ، وَرَاحَ يَمْسَحُ دُمُوعَهُ بِطَرَفِ عَبَاءَتِهِ ! !

شَقَّ عَلَى زَوْجَتِهِ أَنْ تَرَاهُ فِي هَذِهِ الْآلَامِ النَّفْسِيَّةِ ، فَابْتَسَمَتْ فِي وَجْهِهِ وَقَالَتْ وَكَأَنَّهَا تُعَاتِبُهُ :

— يَا لَلَّهِ ! ! إِنِّي مَا رَأَيْتُكَ فِي يَوْمٍ يَائِسًا ، كَمَا أَرَاكَ اللَّيْلَةَ يَا خُزَيْمَةُ ! ! فَلِمَاذَا تَتْرُكُ الْيَأْسَ يَسْتَوْلِي عَلَيْكَ وَيُهْلِكُكَ ؟ !

لَيْسَتْ هَذِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ يَفْتَقِرُ فِيهَا إِنْسَانٌ بَعْدَ غِنًى . . وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ أَنَّ الْغِنَى لَا يَدُومُ ،

وَأَنَّ الْفَقْرَ لَا يَبْقَى . . وَلَنْ يَنْسَاكَ رَبُّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ، لِأَنَّكَ مَا كُنْتَ تَنْسَى الْمُحْتَاجِينَ مِنْ عِبَادِهِ ! !

ثُمَّ غَيَّرَتْ نَبَرَاتِ صَوْتِهَا ، وَقَالَتْ بِصَوْتٍ يَبْعَثُ الْأَمَلَ فِي النَّفْسِ :

— أَمَا سَمِعْتَ يَا خُزَيْمَةُ عَنْ جُودِ خَلِيفَتِنَا سُلَيْمَانَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ ؟ ! لَقَدْ عَرَفْتُ أَنَّهُ يُعْطِي الْكَثِيرَ ، وَيُعِينُ أَصْحَابَ الْمُرُوءَةِ عَلَى مُرُوءَتِهِمْ ! ! وَلَا شَكَّ أَنَّهُ يَعْرِفُ مِنْ أَخْبَارِ كَرَمِكَ مَا يَمْلَأُ نَفْسَهُ مَحَبَّةً لَكَ وَإِعْجَابًا بِكَ ، فَلَوْ أَنَّكَ وَصَلْتَ إِلَيْهِ ،

لَعُدْتَ مِنْ عِنْدِهِ فِي أَحْسَنِ حَالٍ وَأَكْرَمِ مَنْزِلَةٍ!!

تَنَفَّسَ خُزَيْمَةُ نَفَسًا طَوِيلاً ثَقِيلاً ، وَقَالَ :

ـ مَا نَسِيتُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَلَا جَهِلْتُ كَرَمَهُ وَفَيْضَ يَدِهِ يَا أَرْوَى ، وَلَكِنْ كَيْفَ الْوُصُولُ إِلَيْهِ ، وَالطَّرِيقُ طَوِيلٌ وَعِرٌ ، وَلَا رَاحِلَةَ لَنَا نَرْكَبُهَا مِنَ الْجَزِيرَةِ إِلَى دِمَشْقَ ؟!

فَقَالَتْ مُشَجِّعَةً :

ـ اقْتَرِضْ ثَمَنَ رَاحِلَةٍ يَا خُزَيْمَةُ ، وَلَا تَتَرَدَّدْ فِي زِيَارَةِ الْخَلِيفَةِ !!

فَأَجَابَهَا بِيَأْسٍ شَدِيدٍ :

ــ وَهَلْ تَظُنِّينَ أَنِّى أَجِدُ مَنْ يُقْرِضُنِى شَيْئًا ؟!
إِنَّ الدَّائِنِينَ يَسُدُّونَ عَلَىَّ مَسَالِكَ الطُّرُقِ أَيْنَمَا
سِرْتُ !!

ثُمَّ زَفَرَ زَفْرَةً مُحْرِقَةً وَقَالَ :

ــ كَلَّا يَا أَرْوَى !! لَنْ أَفْعَلَ شَيْئًا مِمَّا تَقُولِينَ !!
لَقَدْ عَرَفْتُ طَرِيقَ الْخَلَاصِ !! سَأُقْفِلُ الْبَابَ
وَأَبْقَى هُنَا ، إِلَى أَنْ يَأْتِىَ الْفَرَجُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ،
أَوْ أَمُوتَ جُوعًا !!

وَنَظَرَ إِلَيْهَا بِعَطْفٍ وَقَالَ :

ــ أَمَّا أَنْتِ فَفِى ثَرَاءِ أَهْلِكِ وَغِنَاهُمْ ،

مَا يَضْمَنُ لَكِ حَيَاةً كَرِيمَةً مِنْ بَعْدِى ! !

فَلَمَّا رَأَتْهُ يَكَادُ يَهْلِكُ مِنَ الْهَمِّ وَالْيَأْسِ، أَخَذَتْ يَدَهُ بِرِفْقٍ وَحَنَانٍ ، وَسَارَتْ بِهِ إِلَى الْفِرَاشِ وَهِىَ تَقُولُ :

— هَيَّا إِلَى النَّوْمِ ، فَقَدْ طَالَ بِنَا السَّهَرُ . . وَلَابُدَّ أَنْ يُفَرِّجَ اللَّهُ مَا نَحْنُ فِيهِ ، فَإِنَّ فَرَجَهُ قَرِيبٌ ، وَعَيْنَهُ سَاهِرَةٌ تَرْعَى الْعِبَادَ ! !

— ٢ —

وَكَانَ عِكْرِمَةُ الْفَيَّاضُ وَالِياً لِسُلَيْمَانَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ عَلَى الْجَزِيرَةِ . وَكَانَ مِنْ عَادَتِهِ أَنْ

يَسْمُرَ كُلَّ لَيْلَةٍ مَعَ أَشْرَافِ هَذِهِ الْوِلَايَةِ وَكِبَارِ رِجَالِهَا . . وَكَانَ يَحْرِصُ عَلَى ذَلِكَ كُلَّ الْحِرْصِ؛ لِيَعْرِفَ مِنْ جُلَسَائِهِ أَخْبَارَ الْوِلَايَةِ ، وَمَا يَجْرِي فِيهَا مِنْ صِغَارِ الْأُمُورِ وَكِبَارِهَا ! !

وَفِي ذَاتِ لَيْلَةٍ ذَكَرَ بَعْضُ الْحَاضِرِينَ خُزَيْمَةَ بْنَ بِشْرٍ ، فَقَالَ عِكْرِمَةُ :

— ذَكَّرْتُمُونِي خُزَيْمَةَ . . فَقَدْ مَضَتْ مُدَّةٌ طَوِيلَةٌ مُنْذُ انْقَطَعَ عَنْ مَجْلِسِنَا هَذَا . . وَقَدْ كَانَتْ لَهُ مَوَاقِفُ نَبِيلَةٌ ، يَبْلُغُ فِيهَا ذِرْوَةَ الْمَجْدِ وَالشَّرَفِ ، وَكَانَتْ فِيهِ وَجَاهَةٌ تَزِينُ

كُلَّ مَجْلِسٍ يَجْلِسُ فِيهِ !! فَمَاذَا غَيَّرَهُ عَلَيْنَا ؟؟

وَمَاذَا أَغْضَبَهُ مِنَّا ؟؟

فَقَالَ الْمُتَحَدِّثُ :

ـــ كَلَّا أَيُّهَا الأَمِيرُ . مَا تَغَيَّرَ خُزَيْمَةُ وَلَا غَضِبَ ،

وَلَكِنَّهُ فِي عُسْرٍ وَشِدَّةٍ مِنْ قِلَّةِ الْمَالِ ، وَضِيقِ

ذَاتِ الْيَدِ !!

وَقَصَّ عَلَيْهِ كُلَّ مَا عَلِمَ مِنْ أَمْرِهِ !!

فَظَهَرَ الأَسَفُ وَالأَسَى فِي وَجْهِ عِكْرِمَةَ ،

وَقَالَ :

ـــ وَا أَسَفَاهُ !! مَاتَتِ الْمُرُوءَةُ فِي نُفُوسِ

الرِّجَالِ ! !

خُزَيْمَةُ الَّذِى مَلأَ مَعْرُوفُهُ السَّهْلَ وَالْجَبَلَ ، وَعَمَّ جُودُهُ الْقَرِيبَ وَالْبَعِيدَ ، يَقْضِى حَيَاتَهُ حَبِيسَ الدَّارِ ! !

قَالَ عِكْرِمَةُ ذَلِكَ ، وَلَزِمَ الصَّمْتَ إِلَى آخِرِ الْمَجْلِسِ ! !

٭ ٭ ٭

تَفَرَّقَ الْحَاضِرُونَ ، وَانْتَظَرَ عِكْرِمَةُ حَتَّى انْتَصَفَ اللَّيْلُ ، وَسَكَنَتِ الْحَرَكَةُ فِى طُرُقِ الْمَدِينَةِ ، وَقَامَ إِلَى خِزَانَتِهِ ، فَأَخْرَجَ مِنْهَا أَرْبَعَةَ

آلافَ دِينارٍ ، وَوَضَعَها في كِيسٍ كَبيرٍ ، وَتَنَكَّرَ

في مَلابِسَ خَفِيَّةٍ ، وَأَمَرَ غُلامَهُ بِأَنْ يُسْرِجَ جَوادَهُ

وَيَسْتَعِدَّ لِلْخُروجِ !!

سارَ عِكْرِمَةُ وَمِنْ وَرائِهِ الْغُلامُ يَحْمِلُ الْكِيسَ ،

حَتَّى وَصَلَ إِلَى بابِ الْحَيِّ الَّذي يَسْكُنُ فيهِ خُزَيْمَةُ ،

فَنَزَلَ مِنْ فَوْقِ الْجَوادِ ، وَأَخَذَ الْكِيسَ مِنَ الْغُلامِ ،

وَأَمَرَهُ أَنْ يَقِفَ بِالْجَوادِ حَيْثُ هُوَ ، وَتَقَدَّمَ يَحْمِلُ

الْكِيسَ وَحْدَهُ إِلَى دارِ خُزَيْمَةَ !!

وَهُناكَ طَرَقَ الْبابَ بِرِفْقٍ حَتَّى لا يَسْمَعَهُ

أَحَدٌ غَيْرُ سُكَّانِ الدّارِ ، فَهَبَّ خُزَيْمَةُ مِنْ نَوْمِهِ

مَفْزُوعاً ، وَهُوَ يَحْسِبُ أَنَّ أَحَدَ الدَّائِنِينَ ، جَاءَ يَطْلُبُ مِنْهُ سَدَادَ مَا أَخَذَهُ .. وَاتَّجَهَ إِلَى الْبَابِ وَهُوَ يَقُولُ فِي نَفْسِهِ :

ـ تَاللهِ إِنَّهُ لَكَرِيمُ الْخُلُقِ ، إِذْ جَاءَ تَحْتَ سِتَارِ اللَّيْلِ ، لِكَيْلَا يَفْضَحَنَا بَيْنَ النَّاسِ !! وَلَكِنْ مِنْ أَيْنَ لِي مَا أَدْفَعُهُ إِلَيْهِ ، وَقَدْ خَلَتِ الدَّارُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى الْأَثَاثِ وَالْفِرَاشِ ؟! أَلَا فَلْيَرْحَمْنَا اللهُ !!

قَالَ هَذِهِ الْجُمْلَةَ الْأَخِيرَةَ ، وَيَدُهُ تُحَرِّكُ الْمِفْتَاحَ .. وَإِذَا بِهِ يَجِدُ أَمَامَهُ رَجُلاً



وتركه فى موقفه حائرا .. ص ٢٤

مُتَخَفِّيًا ، لاَيَكادُ يَظْهَرُ مِنْهُ شَيْءٌ ، وَهُوَ يَمُدُّ إِلَيْهِ يَدَهُ بِكِيسٍ ثَقِيلٍ ، وَيَقُولُ لَهُ :

ـــ السَّلاَمُ عَلَيْكَ يَاخُزَيْمَةُ !! خُذْ هَذَا وَأَصْلِحْ بِهِ شَأْنَكَ ، وَدَبِّرْ بِهِ أُمُورَكَ ، فَمِثْلُكَ يَاخُزَيْمَةُ يَجِبُ أَنْ يُعَانَ وَيُسَاعَدَ عَلَى مُرُوءَتِهِ !!

أَمْسَكَ خُزَيْمَةُ الْكِيسَ بِيَمِينِهِ وَأَمْسَكَ يَدَ الرَّجُلِ بِشِمَالِهِ وَقَالَ :

ـــ شُكْرًا لَكَ أَيُّهَا السَّيِّدُ الْجَوَادُ .. وَلَكِنْ مَنْ أَنْتَ ؟؟ وَأَيْنَ تُقِيمُ ؟؟

فَأَجَابَهُ عِكْرِمَةُ وَقَدِ اجْتَهَدَ أَنْ يُغَيِّرَ مِنْ

نَبَرَاتِ صَوْتِهِ ، كَمَا غَيَّرَ مِنْ هَيْئَتِهِ :

ـــ مَا جِئْتُكَ يَا خُزَيْمَةُ فِى هَذِهِ السَّاعَةِ ، وَبِهَذِهِ الصُّورَةِ ، وَأَنَا أُحِبُّ أَنْ تَعْرِفَ مَنْ أَنَا ! !

أَعَادَ خُزَيْمَةُ الْكِيسَ إِلَيْهِ وَهُوَ يَقُولُ :

ـــ سَيِّدِى .. لَنْ أَمُدَّ يَدِى إِلَى هَدِيَّتِكَ إِلَّا إِذَا عَرَفْتُ مَنْ أَنْتَ ، فَإِنْ كُنْتَ حَقًّا تُرِيدُ أَنْ تَصْنَعَ مَعِى جَمِيلًا ، فَاذْكُرِ اسْمَكَ ، فَإِنَّ مَعْرِفَتِى لَكَ خَيْرٌ عِنْدِى مِنْ كُلِّ هَدِيَّةٍ ! !

فَقَالَ عِكْرِمَةُ وَهُوَ يُعِيدُ الْكِيسَ إِلَى يَدِ خُزَيْمَةَ :

ـ مَا كُنْتُ أُحِبُّ أَنْ تَتَمَسَّكَ بِهَذَا الْمَطْلَبِ الْعَسِيرِ الشَّاقِّ ، وَلَكِنْ لَكَ مَا تُرِيدُ يَا خُزَيْمَةُ .. أَنَا جَابِرُ عَثَرَاتِ الْكِرَامِ ! !

وَتَرَكَهُ فِي مَوْقِفِهِ حَائِراً ، وَانْطَلَقَ يَحُثُّ الْخُطَى إِلَى حَيْثُ يَقِفُ الْغُلَامُ ! !

* * *

حَمَلَ خُزَيْمَةُ الْكِيسَ ، وَرَجَعَ بِهِ إِلَى زَوْجَتِهِ وَهُوَ يَقُولُ :

ـ جَاءَ الْفَرَجُ يَا بِنْتَ الْعَمِّ ! ! هَيَّا أَوْقِدِي الْمِصْبَاحَ لِنَرَى مَا فِي الْكِيسِ . إِنَّهُ شَيْءٌ كَثِيرٌ ..

أَكْثَرُ مِمَّا نَحْتَاجُ إِلَيْهِ ! !

فَأَجَابَتْهُ بِفَرْحَةٍ :

ــ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ : إِنَّ عَيْنَ اللهِ لا تَغْفُلُ عَنَّا ،

وَإِنَّ رَحْمَتَهُ قَرِيبَةٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ! !

وَأَرَادَتْ أَنْ نَبْحَثَ عَنْ مِصْبَاحٍ ، وَلَكِنَّهَا تَذَكَّرَتْ

أَنَّ بَيْتَهُمْ لَيْسَ فِيهِ مِصْبَاحٌ وَلا شُعْلَةٌ ، وَلَيْسَ فِيهِ

زَيْتٌ وَلا وَقُودٌ ، فَجَلَسَتْ بِجِوَارِهِ ، وَرَاحَا يَلْمِسَانِ

الْكِيسَ وَيَقُولانِ بِسُرُورٍ وَفَرَحٍ :

ــ إِنْ كَانَ مَا فِيهِ دَرَاهِمَ عِشْنَا بِهَا فِي كَفَافٍ

وَغِنًى عَنِ النَّاسِ ، وَإِنْ كَانَتْ دَنَانِيرَ قَضَيْنَا

حَيَاتَنَا فِي نَعِيمٍ وَرَخَاءٍ ! !

وَوَضَعَا الْكِيسَ أَمَامَهُمَا وَقَامَا يُصَلِّيَانِ

صَلَاةَ الشُّكْرِ لِلَّهِ عَلَى هَذِهِ النِّعْمَةِ الْجَزِيلَةِ !!

ـ ٣ ـ

اِسْتَيْقَظَتْ سَلْمَى بِنْتُ الشَّرِيدِ مِنْ نَوْمِهَا ، عَلَى وَقْعِ أَقْدَامٍ تَتَنَقَّلُ بِحَذَرٍ وَخِفَّةٍ فِي حُجْرَتِهَا ، وَأَوْشَكَتْ أَنْ تَصِيحَ مِنَ الذُّعْرِ وَالْخَوْفِ :

ـ أَدْرِكْنِي يَا عِكْرِمَةُ ! !

وَلَكِنَّهَا قَبْلَ أَنْ تَنْفَرِجَ شَفَتَاهَا عَنْ هَذِهِ الصَّيْحَةِ ، رَأَتْ عِكْرِمَةَ يَمْشِي عَلَى أَطْرَافِ أَصَابِعِهِ ،

وَيَخْلَعُ اللِّثَامَ الَّذِى كَانَ يَسْتَخْفِى بِهِ عَنِ الْأَعْيُنِ، وَيُلْقِيهِ عَلَى مِشْجَبٍ قَرِيبٍ مِنَ السَّرِيرِ ! !

فَقَفَزَتْ مِنْ فِرَاشِهَا ، وَوَقَفَتْ أَمَامَهُ وَجْهًا لِوَجْهٍ ، وَرَاحَتْ تَقُولُ بِحِدَّةٍ وَغَضَبٍ ، وَقَدْ أَثَارَتِ الْغَيْرَةُ شُكُوكَهَا :

— أَيْنَ كُنْتَ يَاعِكْرِمَةُ فِى هَذِهِ السَّاعَةِ مِنَ اللَّيْلِ ؟؟ وَلِمَاذَا تَخَفَّيْتَ وَتَنَكَّرْتَ ؟؟

أَدْرَكَ عِكْرِمَةُ مَايَدُورُ بِنَفْسِهَا مِنَ الْخَوَاطِرِ ، فَابْتَسَمَ ابْتِسَامَةً هَادِئَةً ، وَوَضَعَ ذِرَاعَهُ عَلَى كَتِفَيْهَا ، وَقَالَ وَهُوَ يُدَاعِبُ ذَقَنَهَا بِأَنَامِلِ يَدِهِ

الأُخْرَى :

ـــ اِطْمَئِنِّى يا سَلْمَى ، فَقَدْ خَرَجْتُ لِشَأْنٍ مِنْ شُئُونِ الرَّعِيَّةِ !!

وَلَكِنَّهَا انْفَلَتَتْ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ ، وَزَادَتْ ثَوْرَتُهَا ، وَاشْتَدَّ غَضَبُهَا وَقَالَتْ مُرَدِّدَةً كَلامَهُ :

ـــ "خَرَجْتُ لِشَأْنٍ مِنْ شُئُونِ الرَّعِيَّةِ" !!

ثُمَّ قَالَتْ وَكَأَنَّهَا تَسْخَرُ :

ـــ أَتَظُنُّ أَنَّنِى أَجْهَلُ أَيْنَ كُنْتَ أَيُّهَا الْوَالِى ؟!

جَلَسَ عِكْرِمَةُ عَلَى أَقْرَبِ مَقْعَدٍ مِنْهُ ، وَعَاوَدَتْهُ الابْتِسَامَةُ ، وَقَالَ مُدَاعِبًا :

ـ وَأَيْنَ كُنْتُ إِذَنْ ، مَادُمْتِ لَا تَجْهَلِينَ ؟!

فَاخْتَنَقَ صَوْتُهَا بِالْغَضَبِ ، وَأَمْسَكَتْ لَحْظَةً عَنِ الْكَلَامِ ، ثُمَّ عَادَتْ تَقُولُ :

ـ وَإِلَى الْجَزِيرَةِ ، يَخْرُجُ فِي هَذِهِ السَّاعَةِ مِنَ اللَّيْلِ ، وَلَيْسَ مَعَهُ حَرَسٌ وَلَا سِلَاحٌ ، وَهُوَ مُنْخَفٍ مُتَنَكِّرٌ ، دُونَ عِلْمٍ مِنْ أَهْلِهِ وَوَلَدِهِ ، ثُمَّ يَزْعُمُ أَنَّهُ لَمْ يَخْرُجْ لِأَمْرٍ مُرِيبٍ !!

هَلْ فِي الدُّنْيَا عَاقِلٌ يُصَدِّقُ هَذَا ؟! لَا .. لَا .. أَرِحْنِي يَاعِكْرِمَةُ وَقُلْ : إِنَّكَ خَرَجْتَ لِزَوْجَتِكَ الثَّانِيَةِ !!

ثُمَّ قَالَتْ بِغَيْرَةٍ وَسُخْرِيَةٍ :

ــ وَلَوْ أَنَّكَ أَخْبَرْتَنِي مِنْ قَبْلُ ، خَبَرَ زَوَاجِكَ الْجَدِيدِ ، لَدَبَّرْتُ لَكَ أَمْرَ اللِّقَاءِ وَالزِّيَارَةِ ، وَأَرَحْتُكَ مِنْ هَذَا التَّنَكُّرِ وَالْعَنَاءِ !!

ضَحِكَ عِكْرِمَةُ ضِحْكَةً صَافِيَةً ، وَقَالَ :

ــ بِحَيَاتِكِ يَا سَلْمَى مَا كَانَ شَيْءٌ مِمَّا تَظُنِّينَ .. وَإِنَّكِ لَتَعْلَمِينَ أَنَّ قَلْبِي لَا يَتَّسِعُ لِامْرَأَةٍ أُخْرَى مَعَ بِنْتِ الشَّرِيدِ ، مَهْمَا يَكُنْ شَأْنُهَا .. وَلَكِنِّي خَرَجْتُ لِأَمْرٍ لَا أُحِبُّ أَنْ يَعْرِفَهُ أَحَدٌ سِوَايَ !!

شَعَرَتْ سَلْمَى بِصِدْقِ قَوْلِهِ ، وَسَأَلَتْ

دُمُوعُهَا مِنَ الْفَرَحِ ، وَلَكِنَّهَا رَغِبَتْ فِى مَعْرِفَةِ

هَذَا السِّرِّ الْخَطِيرِ ، فَقَالَتْ :

ــ لَسْتُ أَحَداً سِوَاكَ يا عِكْرِمَةُ حَتَّى تَطْوِىَ

عَنِّى هَذَا السِّرَّ .. فَأَنَا أَنْتَ ، وَسِرُّكَ

سِرِّى ، فَلِمَاذَا تَتْرُكُنِى لِهَذِهِ الْغَيْرَةِ الَّتِى

تُمَزِّقُ قَلْبِى ؟! قُلْ يا عِكْرِمَةُ وَأَرِحْنِى مِنْ

كُلِّ شَكٍّ وَظَنٍّ ! !

فَقَالَ لَهَا :

ــ وَتَكْتُمِينَ مَا أَقُولُ ؟!

فَأَجَابَتْ :

— وَهَلْ كَانَ مِنِّى غَيْرُ الْكِتْمَانِ فِى كُلِّ مَا وَقَفْتُ عَلَيْهِ مِنْ أَسْرَارِكَ ؟ !

وَعِنْدَئِذٍ أَخْبَرَهَا بِقِصَّةِ خُزَيْمَةَ ، وَبِكُلِّ مَا صَنَعَهُ مَعَهُ ، فَوَجَدَتْ فِى نَفْسِهَا رَاحَةً وَسَعَادَةً لَمْ تَشْعُرْ بِمِثْلِهِمَا قَطُّ ، وَقَالَتْ وَهِىَ تَهْتَزُّ مِنَ الطَّرَبِ :

— أَعَانَكَ اللّٰهُ عَلَى فِعْلِ الْمَكْرُمَاتِ يَا عِكْرِمَةُ . فَمِنْ أَجْلِ هٰذَا سَمَّاكَ النَّاسُ الْفَيَّاضَ ! !

* * *

أَمَّا مَا كَانَ مِنْ أَمْرِ خُزَيْمَةَ وَزَوْجَتِهِ ، فَإِنَّهُمَا

قَضَيَا لَيْلَتَهُمَا فِي سُرُورٍ وَسَعَادَةٍ .. وَمَا كَادَتْ أَضْوَاءُ الصَّبَاحِ تَنْتَشِرُ فِي الْأُفُقِ ، وَتُبَدِّدُ ظُلْمَةَ اللَّيْلِ ، حَتَّى أَفْرَغَ خُزَيْمَةُ مَا فِي الْكِيسِ ، وَأَخَذَ يَعُدُّ وَيَعُدُّ ثُمَّ صَاحَ بِدَهْشَةٍ :

ـ أَرْبَعَةُ آلَافِ دِينَارٍ !! أَرْبَعَةُ آلَاف !!

وَتَنَفَّسَ نَفَسًا عَمِيقًا ، وَأَسْنَدَ ظَهْرَهُ إِلَى الْحَائِطِ وَقَالَ :

ـ الْآنَ اسْتَرَحْتُ يَا أَرْوَى !! لَقَدْ ظَنَنْتُ أَنَّ جَابِرَ عَثَرَاتِ الْكِرَامِ وَاحِدٌ مِنَ الْبَشَرِ .

وَعَاهَدْتُ نَفْسِي أَنْ أَبْحَثَ عَنْهُ فِي كُلِّ مَكَانٍ ،

حَتَّى أَكْشِفَ أَمْرَهُ ، وَأَعْرِفَ حَقِيقَتَهُ ، لِأَرُدَّ إِلَيْهِ هَذَا الْجَمِيلَ الْكَبِيرَ . أَمَّا الْآنَ فَقَدْ تَأَكَّدَ عِنْدِي أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ سُكَّانِ هَذِهِ الْأَرْضِ ، وَإِنَّمَا هُوَ مَلَكٌ مِنْ سُكَّانِ السَّمَاءِ ، أَرْسَلَهُ اللَّهُ لِيُنْقِذَنَا مِمَّا كُنَّا فِيهِ .. فَمَا رَأَيْتُ وَلَا سَمِعْتُ أَنَّ إِنْسَانًا جَادَتْ نَفْسُهُ بِمِثْلِ هَذَا الْعَطَاءِ الضَّخْمِ ، إِلَّا أَنْ يَكُونَ خَلِيفَةَ الْمُسْلِمِينَ .

فَهَزَّتْ زَوْجَتُهُ رَأْسَهَا وَهِيَ تَقُولُ :

ـ نَعَمْ هَذِهِ رَحْمَةٌ مِنَ السَّمَاءِ .. وَلَكِنْ يَجِبُ أَنْ نَعْرِفَ جَابِرَ الْعَثَرَاتِ !!



أَحْصَى خُزَيْمَةُ مَا عَلَيْهِ مِنَ الدُّيُونِ، وَخَرَجَ إِلَى الدَّائِنِينَ وَأَعَادَ إِلَيْهِمْ مَا اقْتَرَضَهُ مِنْهُمْ مَصْحُوبًا بِشُكْرِهِ، وَاعْتِرَافِهِ بِفَضْلِهِمْ عَلَيْهِ. ثُمَّ جَدَّدَ مَلَابِسَهُ وَمَلَابِسَ زَوْجَتِهِ، وَأَصْلَحَ مِنْ شُئُونِهِ مَا يَحْتَاجُ إِلَى إِصْلَاحٍ، وَاشْتَرَى رَاحِلَتَيْنِ وَبَعْضَ الْغِلْمَانِ.. وَسَارَ إِلَى سُلَيْمَانَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ فِي دِمَشْقَ، وَهُوَ يُرِيدُ أَنْ يَطْلُبَ عَمَلًا عِنْدَهُ، لِأَنَّهُ صَارَ يَكْرَهُ أَنْ يَعِيشَ بِدُونِ عَمَلٍ.



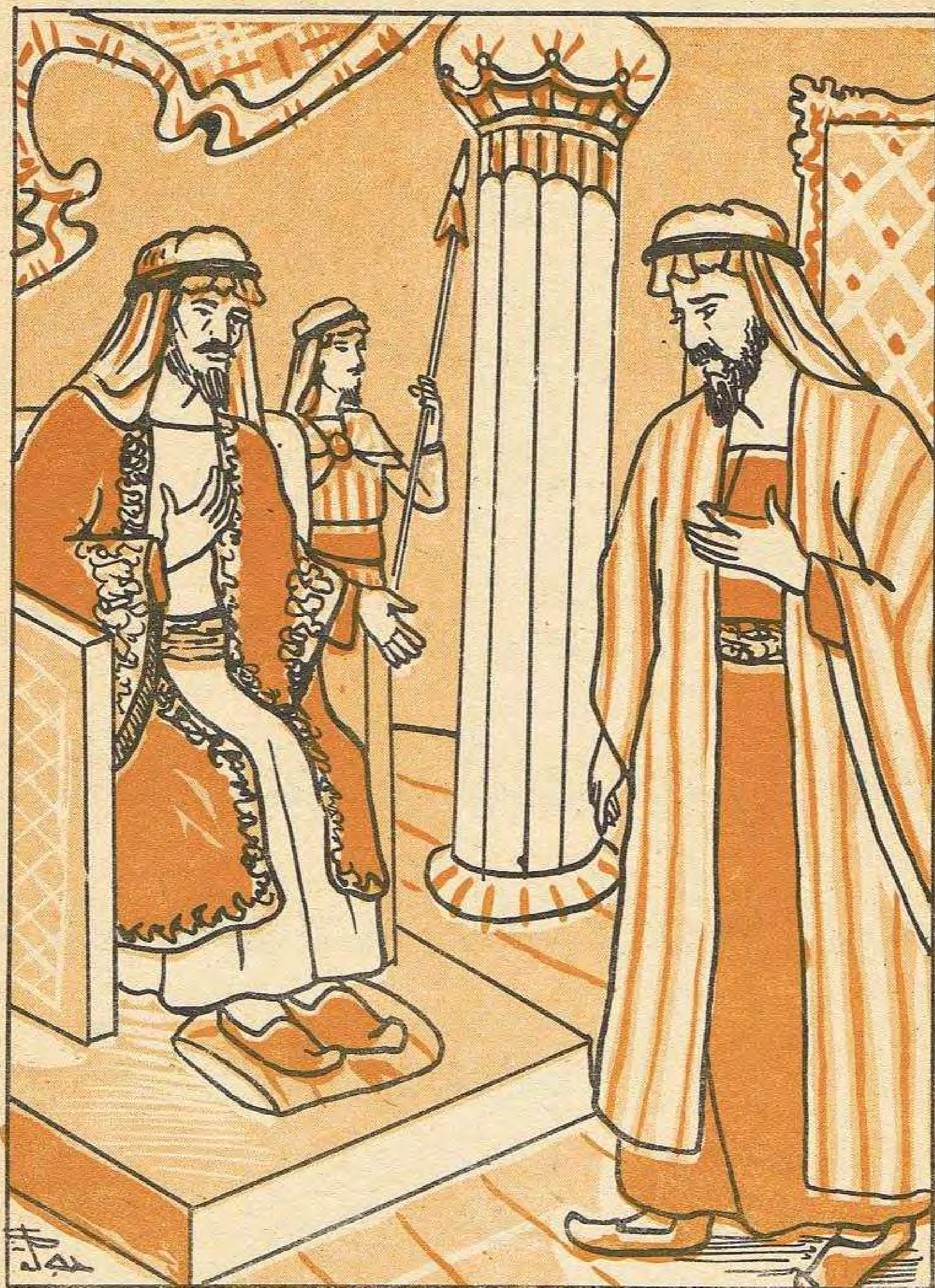
دَخَلَ الْحَاجِبُ عَلَى سُلَيْمَانَ وَهُوَ يَقُولُ :

ــ رَجُلٌ ذُو هَيْئَةٍ وَوَجَاهَةٍ يَاأَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، اسْمُهُ خُزَيْمَةُ بْنُ بِشْرٍ ، يَطْلُبُ الإِذْنَ بِالدُّخُولِ !!

فَقَالَ سُلَيْمَانُ :

ــ وَيْحَكَ يَاغُلَامُ !! هَذَا كَرِيمُ الْجَزِيرَةِ . عَجِّلْ بِالإِذْنِ لَهُ ، وَلَاتَتْرُكْهُ وَاقِفاً مَعَ الشُّعَرَاءِ وَأَصْحَابِ الْحَاجَاتِ !!

وَقَفَ خُزَيْمَةُ أَمَامَ سُلَيْمَانَ بِأَدَبٍ بَعْدَ أَنْ حَيَّاهُ بِتَحِيَّةِ الإِسْلَامِ ، فَهَشَّ سُلَيْمَانُ فِي وَجْهِهِ ، وَاسْتَقْبَلَهُ بِحَفَاوَةٍ وَإِكْرَامٍ ، وَقَالَ لَهُ :



وقص عليه كل ما حدث معه .. ص ٣٨

ــ كُنَّا نُحِبُّ أَنْ نَرَاكَ مُنْذُ زَمَنٍ بَعِيدٍ يَا خُزَيْمَةُ ، فَلِمَاذَا قَعَدْتَ عَنْ زِيَارَتِنَا ؟

فَأَجَابَ خُزَيْمَةُ وَهُوَ لَا يَزَالُ وَاقِفًا :

ــ أَيَّدَ اللهُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ بِنَصْرِهِ ، وَأَعْلَى رَايَتَهُ فَوْقَ الرَّايَاتِ . . إِنَّنِي مَا قَعَدْتُ عَنِ التَّشَرُّفِ بِزِيَارَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَّا لِعَجْزٍ مَنَعَنِي . وَلَقَدْ مَرَّتْ بِي أَيَّامُ شِدَادُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، كُنْتُ أَرَى فِيهَا الْمَوْتَ خَيْرًا مِنَ الْحَيَاةِ !!

وَقَصَّ عَلَيْهِ كُلَّ مَا حَدَثَ مَعَهُ !!

فَقَالَ سُلَيْمَانُ بِعَجَبٍ وَدَهْشَةٍ :

ـ لَيْتَكَ عَرَفْتَ جَابِرَ الْعَثَرَاتِ ، ذَلِكَ الْإِنْسَانَ الْكَرِيمَ . . إِنَّهُ أَحَقُّ النَّاسِ بِالتَّقْدِيرِ وَالْإِكْرَامِ. وَلَوْ عَرَفْنَاهُ لَكَافَأْنَاهُ عَلَى هَذِهِ الْمُرُوءَةِ الَّتِي لَيْسَ لَهَا مَثِيلٌ !!

ثُمَّ قَالَ بِاسْتِنْكَارٍ :

ـ وَكَيْفَ حَدَثَ لَكَ كُلُّ هَذَا ، وَعِكْرِمَةُ يَرَى وَيَسْمَعُ ؟! إِنْ كَانَ قَدْ جَهِلَ مَا أَصَابَكَ مِنْ شِدَّةٍ ، كَانَ مُتَّهَماً بِالتَّقْصِيرِ فِيمَا يَجِبُ عَلَيْهِ لِلرَّعِيَّةِ الَّتِي يَرْعَاهَا فِي وِلَايَتِهِ . وَإِنْ كَانَ قَدْ عَلِمَ وَلَمْ يَمْدُدْ إِلَيْكَ يَدَ الْمُسَاعَدَةِ ، كَانَ مُتَّهَماً

بِالْبُخْلِ .. وَهُوَ فِي كِلْتَا الْحَالَيْنِ لَا يَصْلُحُ لِعَمَلِهِ !!

وَدَعَا الْكَاتِبَ وَأَمَرَهُ أَنْ يُعِدَّ قَرَارًا بِعَزْلِ عِكْرِمَةَ،

وَتَوْلِيَةِ خُزَيْمَةَ مَكَانَهُ !!

— ٤ —

سَارَ خُزَيْمَةُ وَهُوَ فِي مَوْكِبِ الْوَالِي الْفَخْمِ ،

وَسَبَقَهُ الرُّسُلُ إِلَى الْجَزِيرَةِ ، يَحْمِلُونَ خَبَرَ

تَوْلِيَتِهِ !!

فَخَرَجَ عِكْرِمَةُ وَأَشْرَافُ الْمَدِينَةِ يَسْتَقْبِلُونَهُ

عَلَى الْحُدُودِ ، وَيُبَالِغُونَ فِي الْحَفَاوَةِ بِهِ .. وَسَارَ

بَيْنَهُمْ فِي أُبَّهَةٍ وَعَظَمَةٍ ، حَتَّى دَخَلَ قَصْرَ

الْإِمَارَةِ ، وَجَلَسَ عَلَى الْكُرْسِيِّ الْمُعَدِّ لِلْأَمِيرِ ، ثُمَّ نَظَرَ إِلَى رَئِيسِ الشُّرْطَةِ وَقَالَ وَهُوَ يُشِيرُ إِلَى عِكْرِمَةَ :

ـــ خُذْهُ وَشَدِّدْ عَلَيْهِ الْحِرَاسَةَ ، حَتَّى نُحَاسِبَهُ عَلَى مَا جَمَعَهُ مِنْ أَمْوَالِ الْوِلَايَةِ .. وَإِيَّاكَ أَنْ يُفْلِتَ مِنْ يَدِكَ ، فَإِنَّ رَأْسَكَ سَيَطِيرُ مِنْ فَوْقِ كَتِفَيْكَ !!

لَمْ يَجْزَعْ عِكْرِمَةُ وَلَمْ يَضْطَرِبْ ، بَلْ سَارَ مَعَ رَئِيسِ الشُّرْطَةِ ، ثَابِتَ الْخُطَى ، ثَابِتَ الْعَقْلِ وَالْقَلْبِ !!

قَضَى خُزَيْمَةُ أَيَّامًا يُصَرِّفُ شُئُونَ الْوِلَايَةِ، ثُمَّ فَرَغَ لِحِسَابِ عِكْرِمَةَ . . وَكَانَ حِسَابًا عَسِيرًا شَاقًّا ، كَشَفَ عَنْ نَقْصٍ فِي بَيْتِ الْمَالِ ، قَدْرُهُ أَرْبَعَةُ آلَافِ دِينَارٍ ، فَطَلَبَ مِنْهُ أَنْ يُعِيدَ إِلَى بَيْتِ الْمَالِ مَانَقَصَ . . وَلَكِنَّ عِكْرِمَةَ اعْتَذَرَ بِأَنَّهُ لَايَمْلِكُ شَيْئًا ! !

لَمْ يَجِدْ خُزَيْمَةُ مَفَرًّا مِنْ عِقَابِ عِكْرِمَةَ ، فَأَمَرَ بِهِ أَنْ يُلْقَى فِي السِّجْنِ ، وَأَنْ يُقَيَّدَ بِالسَّلَاسِلِ الثَّقِيلَةِ ، وَأَنْ تُنْزَعَ عَنْهُ مَلَابِسُهُ الرَّقِيقَةُ ، وَيُبْدَلَ مِنْهَا خَشِنَ الثِّيَابِ .

وَكَانَ يَظُنُّ أَنَّ هَذِهِ الْقَسْوَةَ سَتَحْمِلُ عِكْرِمَةَ عَلَى إِخْرَاجِ مَا يُخْفِيهِ مِنْ أَمْوَالٍ . . وَلَكِنَّ عِكْرِمَةَ تَقَبَّلَ كُلَّ ذَلِكَ بِصَبْرِ الرَّجُلِ الْكَرِيمِ النَّفْسِ ، وَلَمْ يَنْطِقْ لِسَانُهُ بِشَكْوَى ، وَلَمْ يَكْشِفْ سِرَّهُ مَعَ خُزَيْمَةَ لِأَحَدٍ .

طَالَ سِجْنُ عِكْرِمَةَ وَسَاءَتْ حَالُهُ ، وَخَشِيَتْ زَوْجَتُهُ أَنْ يُصِيبَهُ التَّلَفُ ؛ فَقَالَتْ فِي نَفْسِهَا :

— لَأُخَالِفَنَّ الْعَهْدَ الَّذِي عَاهَدْتُهُ عَلَيْهِ ! !

وَدَعَتْ جَارِيَةً ذَكِيَّةً وَقَالَتْ لَهَا :

— اِذْهَبِي إِلَى قَصْرِ خُزَيْمَةَ ، وَاطْلُبِي الْإِذْنَ

عَلَيْهِ ، وَقُولِي : مَعِي كَلَامٌ لَا يَجُوزُ أَنْ يَسْمَعَهُ أَحَدٌ إِلَّا الْأَمِيرُ وَحْدَهُ . فَإِذَا خَلَوْتِ بِهِ فَعَرِّفِيهِ بِنَفْسِكِ وَقُولِي لَهُ :

— لَيْسَ هَذَا جَزَاءَ جَابِرِ عَثَرَاتِ الْكِرَامِ !!



سَمِعَ خُزَيْمَةُ كَلِمَةَ الْجَارِيَةِ ، وَهَبَّ وَاقِفًا صَائِحًا كَأَنَّمَا لَدَغَتْهُ حَيَّةٌ رَقْطَاءُ وَهُوَ يَقُولُ :

— يَاسَوْءَتَاهُ !! يَافَضِيحَتَاهُ !! إِذَنْ هُوَ عِكْرِمَةُ !! يَاسُوءَ جَزَائِي لَهُ !! يَالُؤْمَ

نَفْسِي وَخِسَّةَ طَبْعِي !!

وَقَامَ مِنْ سَاعَتِهِ وَرَكِبَ إِلَى السِّجْنِ هُوَ وَأَشْرَافُ الْمَدِينَةِ ، وَدَخَلُوا عَلَى عِكْرِمَةَ ، فَرَأَوْهُ فِي شَرِّ حَالٍ .. جِسْمٍ هَزِيلٍ ، وَلَوْنٍ أَصْفَرَ ، وَمَلَابِسَ خَشِنَةٍ وَسِخَةٍ !! فَلَمَّا نَظَرَ إِلَيْهِمْ عِكْرِمَةُ خَجِلَ مِنْ سُوءِ حَالِهِ ، وَأَطْرَقَ بِرَأْسِهِ إِلَى الْأَرْضِ .. وَعَرَفَ خُزَيْمَةُ مَا بِنَفْسِهِ ، فَأَسْرَعَ إِلَيْهِ وَانْحَنَى عَلَى رَأْسِهِ وَأَخَذَ يُقَبِّلُهُ وَبَكَى !!

فَدَهِشَ عِكْرِمَةُ وَقَالَ :

ـ مَا الَّذِى دَعَاكَ إِلَى هَذَا الْعَمَلِ أَيُّهَا الْأَمِيرُ؟!

فَأَجَابَ خُزَيْمَةُ :

ـ كَرَمُ فِعْلِكَ ، وَسُوءُ مُكَافَأَتِى !!

فَقَالَ عِكْرِمَةُ :

ـ سَامَحَكَ اللَّهُ ، وَغَفَرَ لِى وَلَكَ ..
إِنَّكَ مَا فَعَلْتَ إِلَّا مَا يَجِبُ أَنْ يَفْعَلَهُ الْوَالِى الْحَرِيصُ عَلَى مَالِ الْمُسْلِمِينَ !!

فَدَعَا خُزَيْمَةُ الْحَدَّادَ ، وَأَمَرَهُ أَنْ يَكْسِرَ قُيُودَ عِكْرِمَةَ ، وَأَنْ يُقَيِّدَهُ هُوَ مَكَانَهُ ،

فَقَالَ عِكْرِمَةُ :

ــ وَلِمَ ذَلِكَ أَيُّهَا الأَمِيرُ ؟ !

فَأَجَابَ :

ــ إِنَّ نَفْسِي لَا تَطِيبُ وَلَا تَهْدَأُ إِلَّا إِنْ نَالَنِي مِنْ أَلَمِ الْقَيْدِ وَالْحَبْسِ مِثْلُ الَّذِي نَالَكَ مِنْهُمَا .

فَقَالَ عِكْرِمَةُ :

ــ أَحْلِفُ عَلَيْكَ بِاللَّهِ أَلَّا تَفْعَلَ ! !

* * *

وَخَرَجُوا مِنَ السِّجْنِ وَسَارُوا حَتَّى وَصَلُوا إِلَى دَارِ خُزَيْمَةَ ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِ عِكْرِمَةُ وَأَرَادَ أَنْ يَنْصَرِفَ إِلَى دَارِهِ ، وَلَكِنَّ خُزَيْمَةَ أَبَى وَقَالَ :

ـــ لَنْ تعُودَ إِلَى دَارِكَ وَأَنْتَ فِي هَذِهِ الْحَالِ ؛ فَإِنَّ خَجَلِي مِنْ بِنْتِ عَمِّكَ أَشَدُّ مِنْ خَجَلِي مِنْكَ !!

وَدَخَلَا الْقَصْرَ وَأَمَرَ خُزَيْمَةُ بِإِعْدَادِ الْحَمَّامِ الْفَخْمِ . وَرَاحَ يَخْدُمُ عِكْرِمَةَ بِنَفْسِهِ ، وَيُشْرِفُ عَلَى حَمَّامِهِ . ثُمَّ أَلْبَسَهُ أَفْخَرَ الثِّيَابِ ، وَجَلَسَ مَعَهُ عَلَى مَائِدَةٍ تَجْمَعُ مَا لَذَّ وَطَابَ مِنَ الطَّعَامِ . وَأَمَرَ بِأَمْوَالٍ كَثِيرَةٍ وَهَدَايَا غَالِيَةٍ ، فَحُمِلَتْ إِلَى دَارِهِ مَعَ رَسُولٍ يَزُفُّ الْبُشْرَى لِزَوْجَتِهِ .

وَبَعْدَ قَلِيلٍ اسْتَقْبَلَتْ دَارُ عِكْرِمَةَ سَيِّدَهَا الْعَظِيمَ بِفَرْحَةٍ مَا بَعْدَهَا فَرْحَةٌ ، وَازْدَحَمَتْ

بِأَفْوَاجِ الْمُهَنِّئِينَ الْقَادِمِينَ مِنْ قَرِيبٍ وَبَعِيدٍ فِي الْمَدِينَةِ .

﴿ ﴿ ﴿

وَفِي إِحْدَى الْحُجُرَاتِ جَلَسَ خُزَيْمَةُ وَعِكْرِمَةُ، وَأَخَذَ خُزَيْمَةُ يُخَاطِبُ زَوْجَةَ عِكْرِمَةَ وَهِيَ جَالِسَةٌ وَرَاءَ سِتَارٍ ، وَيَقُولُ لَهَا :

— إِنِّي أَعْتَذِرُ إِلَيْكِ مِمَّا حَدَثَ يَابِنْتَ الْعَمِّ ، وَلَكِنِّي أَعْتِبُ عَلَيْكِ أَشَدَّ الْعِتَابِ ؛ لِأَنَّكِ تَرَكْتِنِي أَفْعَلُ مَعَ عِكْرِمَةَ مَا فَعَلْتُ ، وَكُنْتِ تَسْتَطِيعِينَ أَنْ تُنْقِذِينِي مِنْ هَذِهِ الْفَعْلَةِ الْخَسِيسَةِ!!

فَأَجَابَتْ :

— كُنْتُ أَخْشَى غَضَبَهُ يَاخُزَيْمَةُ .. وَإِنِّي مَازِلْتُ أَخْشَى أَنْ يَكُونَ غَاضِباً عَلَيَّ فِي نَفْسِهِ ، لِأَنِّي خَالَفْتُ مَا عَاهَدْتُهُ عَلَيْهِ !!

وَأَرْجُوكَ يَاخُزَيْمَةُ أَنْ تَشْفَعَ لِي عِنْدَهُ ، وَأَنْ تَطْلُبَ لِي مِنْهُ الصَّفْحَ وَالْعَفْوَ !!

فَقَالَ عِكْرِمَةُ بِصَوْتٍ هَادِئٍ رَزِينٍ :

— غَفَرَ اللهُ لَنَا جَمِيعًا !!

— ٥ —

قَضَى عِكْرِمَةُ مَعَ أَهْلِهِ أَيَّامًا صَافِيَةً مِنَ



وجلس معه على مائدة تجمع ما لذ وطاب . ص ٤٨

الأَكْدَارِ ، وَفَرَغَ مِنِ اسْتِقْبَالِ الْمُهَنِّئِينَ وَالضُّيُوفِ ، وَلَمْ يَنْقَطِعْ خُزَيْمَةُ عَنْ زِيَارَتِهِ فِي كُلِّ هَذِهِ الأَيَّامِ .

وَفِي إِحْدَى اللَّيَالِي ، اقْتَرَحَ عَلَيْهِ أَنْ يَرْكَبَ مَعَهُ إِلَى الْخَلِيفَةِ سُلَيْمَانَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ . فَقَبِلَ الاقْتِرَاحَ وَأَخَذَا يَسْتَعِدَّانِ لِلسَّفَرِ .

وَصَلَ رَكْبُهُمَا إِلَى قَصْرِ سُلَيْمَانَ ، وَدَخَلَ الْحَاجِبُ يَسْتَأْذِنُ لِخُزَيْمَةَ فِي الدُّخُولِ . .

وَكَانَتِ الْجَزِيرَةُ تُجَاوِرُ بِلَادَ الرُّومِ ، وَالْمَعَارِكُ الْحَرْبِيَّةُ وَالْغَارَاتُ لَا تَنْقَطِعُ فِيهَا بَيْنَ الْعَرَبِ

وَالرُّومِ .

فَلَمَّا سَمِعَ الْخَلِيفَةُ اسْمَ خُزَيْمَةَ ، ارْتَبَكَ وَقَالَ :

— وَالِي الْجَزِيرَةِ يَتْرُكُ وِلَايَتَهُ ، وَيَجِيءُ إِلَيْنَا بِدُونِ طَلَبٍ مِنَّا ؟! لَابُدَّ أَنْ يَكُونَ قَدْ حَدَثَ فِي الْوِلَايَةِ حَدَثٌ خَطِيرٌ !!

ثُمَّ قَالَ لِلْحَاجِبِ :

— أَدْخِلْهُ وَعَجِّلْ !!

وَمَا كَادَ خُزَيْمَةُ يَقِفُ أَمَامَ سُلَيْمَانَ ، حَتَّى سَأَلَهُ سُلَيْمَانُ قَبْلَ أَنْ يَسْمَعَ مِنْهُ التَّحِيَّةَ :

ـــ ماذَا وَرَاءَكَ يَاخُزَيْمَةُ ؟؟ وَلِمَاذَا جِئْتَ دُونَ دَعْوَةٍ مِنَّا ؟

فَابْتَسَمَ خُزَيْمَةُ ابْتِسَامَةً أَعَادَتِ الاطْمِئْنَانَ إِلَى قَلْبِ سُلَيْمَانَ وَقَالَ :

ـــ خَيْرٌ يَاأَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ! !

فَقَالَ سُلَيْمَانُ :

ـــ هَلْ أَحْرَزَتْ جُيُوشُكَ نَصْراً جَدِيداً فِي بِلَادِ الرُّومِ يَاخُزَيْمَةُ ، فَجِئْتَ تَزُفُّ إِلَيْنَا بُشْرَى هَذَا النَّصْرِ ؟!

فَأَجَابَ خُزَيْمَةُ :

ـــ إِنَّنِى جِئْتُ أُبَشِّرُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ بِنَصْرٍ أَكْبَرَ مِنَ النَّصْرِ فِى الْحُرُوبِ وَالْقِتَالِ . . جِئْتُ أُبَشِّرُهُ بِأَنِّى عَثَرْتُ عَلَى جَابِرِ عَثَرَاتِ الْكِرَامِ ! !

فَطَرِبَ سُلَيْمَانُ حَتَّى وَقَفَ مِنْ فَوْقِ مَقْعَدِهِ، وَقَالَ بِلَهْفَةٍ :

ـــ حَقًّا وَجَدْتَهُ وَعَرَفْتَ طَرِيقَهُ يَا خُزَيْمَةُ ؟! مَنْ هُوَ ؟ وَأَيْنَ كَانَ ؟

فَقَالَ خُزَيْمَةُ :

ـــ وَحَيَاتِكَ قَدْ وَجَدْتُهُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ . . وَإِنَّهُ لَوَاقِفٌ عَلَى بَابِكَ الْآنَ . . إِنَّهُ الرَّجُلُ

الَّذِى صَنَعَهُ كَرَمُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَعَلَّمَهُ الْبَذْلَ وَالْجُودَ وَالسَّخَاءَ : عِكْرِمَةُ الْفَيَّاضُ ! !

فَرَجَعَ سُلَيْمَانُ إِلَى مَقْعَدِهِ وَهُوَ مُطْمَئِنٌّ وَقَالَ :

ـ لَقَدْ ظَلَمْنَا عِكْرِمَةَ ، وَأَسَأْنَا بِهِ الظَّنَّ ، وَهُوَ الْكَرِيمُ الْجَوَادُ ، الَّذِى يَخْجَلُ الْبَحْرُ مِنْ كَرَمِهِ ، وَيُقَصِّرُ السَّحَابُ عَنْ جُودِهِ ! !

هَيَّا أَدْخِلْهُ مُكَرَّمًا يَا خُزَيْمَةُ ! !

٥ ٥ ٥

اِحْتَفَى سُلَيْمَانُ بِعِكْرِمَةَ حَفَاوَةً ظَاهِرَةً ،

وَأَجْلَسَهُ إِلى جَنْبِهِ ، وَأَخَذَ يُلاطِفُهُ وَيَقُولُ :

ـ لَقَدْ كانَ إِحْسانُكَ إِلى خُزَيْمَةَ سَبَبًا فِي أَنْ تَلْقَى مَا لَقِيتَ فِي السِّجْنِ يا عِكْرِمَةُ !!

فَقالَ عِكْرِمَةُ :

ـ بَلْ كانَ سَبَبًا فِي أَنِّي ظَفِرْتُ بِعَطْفِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَرِضاهُ .. وَلَوْلا أَنِّي لَقِيتُ ما لَقِيتُ ، ما جَلَسْتُ هَذا الْمَجْلِسَ الْكَرِيمَ !!

فَبالَغَ سُلَيْمانُ فِي إِظْهارِ رِضاهُ عَنْهُ ، وَعَطْفِهِ عَلَيْهِ ، وَقالَ لَهُ :

ـ اُذْكُرْ جَمِيعَ حاجاتِكَ يا عِكْرِمَةُ ، فَإِنَّها

مَفْضِيَّةٌ فِي سَاعَتِهَا هَذِهِ ! !

وَقَفَ عِكْرِمَةُ بِأَدَبٍ وَقَالَ بِلِسَانِ الشَّاكِرِ :

ـــ إِنَّ طَلَبَ الْحَاجَاتِ مِنْكَ يَاأَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ شَرَفٌ . وَلَكِنَّكَ لَمْ تَتْرُكْنِي أَحْتَاجُ إِلَى شَيْءٍ ؛ فَإِنْ رَأَيْتَ يَاأَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ تَزِيدَنِي شَرَفًا وَنِعْمَةً ، فَلْتَتَفَضَّلْ عَلَيَّ بِمَا يَلِيقُ بِكَرَمِكَ وَفَضْلِكَ !!

اِهْتَزَّ سُلَيْمَانُ طَرَبًا فِي مَجْلِسِهِ ، عِنْدَمَا سَمِعَ هَذَا الْكَلَامَ الْجَمِيلَ وَقَالَ :

ـــ يَاغُلَامُ ، ادْعُ لَنَا خَازِنَ بَيْتِ الْمَالِ ، وَكَبِيرَ الْكُتَّابِ ، وَرَئِيسَ الْجَيْشِ .

فَلَمَّا حَضَرُوا أَمَرَ لِعِكْرِمَةَ بِعَشَرَةِ آلَافِ دِينَارٍ، تَخْرُجُ لَهُ مِنْ بَيْتِ الْمَالِ. وَأَمَرَ كَاتِبَهُ أَنْ يُعِدَّ وَثِيقَةً بِتَوْلِيَتِهِ ثَلَاثَ وِلَايَاتٍ كَبِيرَةٍ: الْجَزِيرَةِ، وَأَرْمِينِيَّةَ، وَأَذْرَبِيجَانَ.

وَأَمَرَ رَئِيسَ الْجَيْشِ أَنْ يُسَلِّمَهُ أَعْلَامَ هَذِهِ الْوِلَايَاتِ فِي حَفْلٍ كَبِيرٍ.

وَقَالَ لِعِكْرِمَةَ وَهُوَ يُشِيرُ إِلَى خُزَيْمَةَ:

— وَأَنْتَ الْآنَ يَا عِكْرِمَةُ صَاحِبُ الرَّأْيِ فِي أَمْرِ خُزَيْمَةَ، إِنْ شِئْتَ أَبْقَيْتَهُ فِي وِلَايَتِهِ تَابِعًا لَكَ، وَإِنْ شِئْتَ عَزَلْتَهُ!!

فَوَقَفَ عِكْرِمَةُ وَهُوَ يَقُولُ :

— بَلْ يَبْقَى يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ . . زَادَكَ اللَّهُ عِزًّا وَتَأْيِيداً ، وَأَعَانَنَا اللَّهُ عَلَى الْإِخْلَاصِ لَكَ ، وَالْوَفَاءِ بِحَقِّكَ ! !

* * *

أَمَّا بَعْدُ ، فَهَؤُلَاءِ ثَلَاثَةُ رِجَالٍ مِنَ الْعَرَبِ ، اشْتَهَرُوا بِالْكَرَمِ ، الَّذِى لَا يَعْرِفُهُ النَّاسُ الْيَوْمَ ، وَلَوْلَا كَرَمُهُمْ مَا بَقِىَ ذِكْرُهُمْ .

فَهَلْ تُحِبُّ أَنْ يَبْقَى ذِكْرُكَ عَلَى وَجْهِ الدَّهْرِ ! !

لَقَدْ عَرَفْتَ الْآنَ طَرِيقَ الذِّكْرِ وَالْخُلُودِ ! !

حديقة الطفل

ظهر منها

(١) السمكتان المتوحشتان .
(٢) الابرة العجيبة .
(٣) تطقوطة الجميلة .
(٤) قطعة الذهب .
(٥) بحيرة الذئب .
(٦) التمثال الباكى .
(٧) صانعة البطل .
(٨) هدية القزم .
(٩) مزرعة الأرنب .
(١٠) دموع التماسيح .
(١١) من أخلاق العرب .
(١٢) فرقة موسيقى .
(١٣) الطائر الأخضر .
(١٤) ذو الرداء الذهبى .
(١٥) شجرة الذهب .
(١٦) جندى يعود .
(١٧) فى بيت العرائس .
(١٨) حياة جديدة .
(١٩) العرش الطائر .
(٢٠) تاج الهدهد .
(٢١) الطبال الصغير .
(٢٢) مع ملك البحار .
(٢٣) أحذية الأميرات .
(٢٤) التفاحة العجيبة .
(٢٥) رأس الشيطان .
(٢٦) مغنى الامبراطور .
(١٧) الصندوق الطائر .
(٢٨) ثورة جزيرة .
(٢٩) خرطوم الفيل .
(٣٠) بنت أمير الشمس
(٣١) أرض الأحرار .
(٣٢) أميرة البرتقال .
(٣٣) الفلاح السعيد .
(٣٤) مثل فى الجود .
(٣٥) الأمير المتخفى .
(٣٦) داعية سلام .
(٣٧) عبيد العصا .
(٣٨) سيد الكرماء .
(٣٩) معركة حول غدير .
(٤٠) رقصات الأبطال .

تطلب من مكتبة مصر

دار مصر للطباعة